

خَطْ خَانَقَيْنِ

كَدُّنَا عَيْسَى بْنَ هِشَامٍ قَالَ:
ظَرَكْتَنِي النَّوَى مَطَارَكَهَا كَتْنِي
إِذَا وَطِئْتُ جُرْجَانَ الْأَقْصَى.
فَاسْتَظْهَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ بِضِيَاءِ
أَجَلْتُ فِيهَا يَدَ الْعِمَارَةِ،
وَأَمْوَالَ وَقَفْتُهَا عَلَى التُّجَارَةِ،
وَكَانُوتِ جَعَلْتُهُ مَثَابَةً، وَرُفْقَةً
اتَّخَذْتُهَا صَكَابَةً، وَجَعَلْتُ
لِلدَّارِ، كَاشِيَتِي النَّهَارِ،
وَاللَّكَانُوتِ بَيْنَهُمَا، فَجَلَسْنَا
يَوْمًا نَتَذَاكُرُ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ،

وَتِلْقَاءَنَا شَابٌ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ
بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ،
وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَتِّي
إِذَا قَالَ الْكَلَامُ بِنَا مَيْلَهُ، وَجَرَّ
الْجِدَالَ فِينَا ذَيْلَهُ، قَالَ: قَدْ
أَصَبْتُمْ عُدَيْقَهُ، وَوَاضَيْتُمْ
جُذَيْلَهُ، وَلَوْ شِئْتُ لَلَفَضْتُ
وَأَفَضْتُ، وَلَوْ قُلْتُ لِأُصْدِرْتُ
وَأُورِدْتُ، وَلَجَلَوْتُ الْحَقَّ فِي
مَعْرَضٍ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ، وَيُنْزِلُ
الصُّمَمَ، فَقُلْتُ: يَا خَاضِلُ أَدْنُ
فَقَدْ مَنَيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ
أَثْنَيْتَ، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي

أَجِبْكُمْ، وَاسْفَعُوا أَعَجِبْكُمْ.
فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِيهِ امْرِيءِ
الْقَيْسِ؟ قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ
بِالدُّيَارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاعْتَدَى
وَالطَّيْرُ فِيهِ وَكُنَاتِهَا، وَوَصَفَ
الْخَيْلَ بِصِفَاتِهَا، وَلَمْ يَقُلْ
الشَّعْرَ كَاسِيًا. وَلَمْ يُجِدِ الْقَوْلَ
رَاجِعًا، فَفَضَّلَ مَنْ تَفَتَّقَ لِلْحِيلَةِ
لِسَانُهُ، وَأَنْتَجَعَ لِلرَّغْبَةِ بَنَانُهُ،
قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِيهِ النَّابِضَةِ؟
قَالَ: يَثْلُبُ إِذَا كَنِقَ، وَيَمْدَحُ
إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهَبَ،
فَلَا يَرْمِي إِلَّا صَائِبًا، قُلْنَا: فَمَا

تَقُولُ فِي زُهَيْرٍ؟ قَالَ يُذِيبُ
الشَّعْرَ، وَالشَّعْرُ يُذِيبُهُ، وَيَدْعُو
الْقَوْلَ وَالسُّحْرَ يُجِيبُهُ، قُلْنَا: فَمَا
تَقُولُ فِي طَرْفَةٍ: قَالَ: هُوَ مَاءُ
الْأَشْعَارِ وَطِينَتُهَا، وَكَثُرُ
الْقَوَاضِي وَمَدِينَتُهَا، مَاتَ وَلَمْ
تُظْهَرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ وَلَمْ تُفْتَحْ
أَغْلَاقُ خَزَائِنِهِ، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ
فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ؟ أَيُّهُمَا
أَسْبَقُ؟ فَقَالَ: جَرِيرٌ أَرْقُ شِعْرًا،
وَأَعَزُّ عَزْرًا وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ
صَخْرًا، وَأَكْثَرُ فَخْرًا وَجَرِيرٌ
أَوْجَعُ هَجْوًا، وَأَشْرَفُ يَوْمًا

وَالْفَرْزَدَقُ أَكْثَرُ رَوْماً، وَأَكْرَمُ
قَوْماً، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى،
وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ
أَسْنَى، وَالْفَرْزَدَقُ إِذَا اخْتَرَّ
أَجْزَى، وَإِذَا اخْتَقَرَ أَرْزَى، وَإِذَا
وَصَفَ أَوْضَى، قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ
فِي الْمُحَدِّثِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
وَالْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ:
الْمُتَقَدِّمُونَ أَشْرَفُ لَفْظًا، وَأَكْثَرُ
مِنَ الْمَعَانِي كَظًا، وَالْمُتَأَخِّرُونَ
الْطَفُّ صُنْعًا، وَأَرْقُ نَسْجًا، قُلْنَا:
فَلَوْ أَرَيْتَ مِنْ أَشْعَارِكَ، وَرَوَيْتَ

لَنَا مِنْ أَخْبَارِكَ، قَالَ: خُذْهُمَا
فِي مَعْرِضٍ وَاحِدٍ، وَقَالَ:

أَمَا تَرَوْنِي أَتَغَشِّي طِمْرًا ...
مُفْتَطِيًّا فِي الضَّرِّ أَمْرًا مُرًّا
مُضْطَبَّنًا عَلَى اللَّيَالِي غَمْرًا ...
مُلَاقِيًّا مِنْهَا صُرُوفًا كَمْرًا
أَقْصَى أَمَانِي طُلُوعَ الشَّعْرِ ...
فَقَدْ عُنِينَا بِالْأَمَانِي دَهْرًا
وَكَانَ هَذَا الْحُرُّ أَعْلَى قَدْرًا ...
وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَعْلَى سِعْرًا
ضَرَبْتُ لِلسَّيِّئِ قَبَابًا خُضْرًا ... فِي
دَارِ دَارَا وَإِوَانِ كِسْرِي

فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنٍ ظَهَرَا ...
وَعَادَ عُرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نُكْرًا
لَمْ يُبْقِ مِنْ وَضْرِي إِلَّا ذِكْرًا ... ثُمَّ
إِلَى الْيَوْمِ هَلُمَّ جَرًّا
لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بِسُرٍّ مَنْ رَأَى ...
وَأُفْرُخُ دُونَ جِبَالٍ بُصْرِي
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ ضُرًّا ...
قَتَلْتُ يَا سَادَةَ نَفْسِي صَبْرًا

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ، فَاثْلَتُهُ مَا
تَاجَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَّاحَ.
فَجَعَلْتُ أَنْضِيهِ وَأَثْبَتُهُ، وَأَنْكَرُهُ
وَكَاثِنِي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيْهِ

ثَنَاهُ، فَقُلْتُ: الْإِسْكَنْدَرِيُّ
وَاللَّهُ، فَقَدْ كَانَ خَارِقَنَا خَشْفًا،
وَوَاضَانَا جِلْفًا، وَنَهَضْتُ عَلَى
إِثْرِهِ، ثُمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِهِ،
وَقُلْتُ: أَلَسْتُ أَبَا الْفَتْحِ؟ أَلَمْ
نُرَبِّكَ ضِينًا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ ضِينًا
مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ
لَكَ بِسُرٍّ مَنْ رَأَى فَضْحِكَ إِلَيَّ
وَقَالَ:

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زُورٌ ... فَلَا
يَعُزُّكَ الضُّرُورُ

لَا تَلْتَزِمُ كَالَةً، وَلَكِنْ ... دُرْ
بِالْيَالِي كَمَا تَدُورُ.